

شعرية النسر  
في الخطاب الشعري القديم  
شعرية النسر والأسطورة المزاحة

obeikandi.com

الانزياح مصطلح أوجده النقد الأسطوري للدلالة على أن الأسطورة الأصلية تخضع لتعديل يجريه الشاعر أو الأديب حتى يلائم بينها وبين موقفه ونظريته. ولو كانت مجتمعات اليوم كمجتمعات أمس البعيد لما كان ثمة حاجة إلى إجراء التعديل الذي يزيح الأسطورة عن أساسها وهيكلها الأولي. فنظرة الشاعر في مجتمعاتنا مضطرة أن تضع في حسابها كثيراً من المستجدات كروح العصر وظهور مخترعات حضارية ونشوء علاقات جديدة بين الطبقات الاجتماعية وتغير في الاتجاه السياسي العام، وقيام أنظمة وسقوط أنظمة... أشياء وأشياء تجبر الشاعر على استخدام الأسطورة الأولية استخداماً جديداً، المفاهيم الاجتماعية والقيم الأخلاقية والطموحات الفكرية..... على أن الانزياح لا يقتصر على تغيير الأدوات القديمة بأدوات جديدة وحسب، بل إنه يشمل الفكرة ذاتها، إذ قد يوظف الشاعر هذه الفكرة توظيفاً جديداً، أو قد يضخم فكرة ثانوية ويجعلها تنصدر الأسطورة. إن في فكرة الأسطورة الكثير من الموتيفات الثانوية التي قد يختار منها الشاعر ما يناسب نظريته وما يعالج به الموضوعات التي يطرحها عصره)) (١٤).

من المعروف في التصورات الأسطورية تداخل بعض الأساطير وتزاؤها بعضها إلى بعض، نرى هذا في ترامي النسر إلى عالم العقاب وتداخلهما معا في عالم الصقر في التراث الأسطوري العربي، وقد لحظ الدكتور نذير العظمة في بحثه عن (سفر العنقاء) شيئاً من هذا التداخل بين العنقاء والصقر وطائر السميرغ وغير ذلك من الطيور في التراث الأسطوري العالمي، وأقرب بأن (( الأسطورة كل أسطورة تدخل التاريخ وتصبح بعضاً من صور الأزمنة الغابرة، وتدخل الأشياء والكائنات فتنمأها معها وتبقى منفصلة عنها ومتحدة بها، تتلون بها الطقوس والغنيات والقصص وتحمل هي ألوانها جميعاً أو بعض ما يشير إلي تلك ألوان وترفل الأمكنة بأوشحة القداسة، يخرج التاريخ من الأسطورة ليصير علماً أو ما يشبه العلم، ويبقى الكثير من الأساطير عالقا به أو متحداً، يتوسد الشعر وسائد حشيت بريشها المدهش فيمتلىء بالصور،

ويصير له كيان مستقل ويبقى حامى نكهة الأساطير ووهجها، وبين هذا التداخل والامتزاج والتفرد وطول الترحال من حضارة إلى حضارة الكثير من الملامح التي تعطى للكائن فرادته، والأسطورة كائن مكون من كائنات، ورمز تطلع إنساني بعيد الغور))<sup>(٦٥)</sup>.

والقصيدة كما نرى من صور هذا التدامج بين النسر والعقاب فى الشعر الذى أورده الفريق فوزى المعلوف لامرئ القيس يصف بها فرسه مشبها لها بالعقاب، ولا بأس بإيراد الأبيات التي يصف بها العقاب هنا لأنه لم يرد منها كما يقول المعلوف في دواوين امرئ القيس المطبوعة إلا البيت الأول فقط والأبيات هي:

كأنها حين فاض الماء واحتفلت

سقعاء لاح لها القفرة والذيب

فأبصرت شخصه من رأس مرقبة

ودون موقعها منه شـناخيب

فأقبلت نحوه في الجو كاسرة

يحثها من هوى اللوح تصويب

صبت عليه ولم تنصب من أمم

إن البلاء على الأشقين مصبوب

كالدلو بتت عراها وهي متقلة

وخانها وذم منها وتكريب

لا كالتى في هواء الجو مطالبة

ولا كهذا الذي في الأرض مطلوب

كالبرق والريح مرآتهما عجب

ما في اجتهاد عن الإسراع تغيب  
فأدر كتفه فنالتفه مخالبتها  
فانسل من تحتها والدف منقوب  
يلوذ بالصخر منها بعد ما فترت  
منها ومنه على الصخر الشائب  
ثم استغاث بدحل وهي تعفره  
وباللسان وبالشدقين تتريب  
مأخطأته المنايا قيس أنمله  
ولا تحرز إلا وهو مكروب  
فظل منجرا منها يراصدها  
ويرقب الليل إن العيش محبوب<sup>(١٦)</sup>

والقصيدة كما نرى درة من درر الشعرى الرمزية الدرامية، ولعلنا نتذكر هنا قصيدة (العقاب الهرم)) للعقاد وما عاناه بعد العزة والعلو من مزارات السفوح الواطئة بعد أن تحولت بالشعر والشاعر العربي المعاصر هويته الذاتية ومعا أيضا الهوية العربية من شامخ عال إلى خفض، وسوف نتعرض لهذا الشعر بالتفصيل الجمالي فيما بعد، ولكننا نؤكد هنا بأن الوجود الشعري للنسر قد بلغ في الشعرية القديمة ذرى سامقة من ذرى الفن الأصيل، حيث نجد النسر قناعا، ونراه رمزا، ونراه أسطورة، ونراه بناءا دراميا متناميا، وبناء على هذا يعد بحثنا عن شعرية النسر إضافة جوهرية لمجمل الرموز الكلية التي كونت الشعرية العربية القديمة والحديثة معا، مثله مثل رمز الناقة والطلل والفرس والمطر والسقيا والغيث، بل نجد هذا التداخل الجمالي

الخالق بين بنية الشعر نفسه بين النسروعالم الحيوان فيصِف عبيد ابن الأبرص ناقته  
كانها مثل ((لقوة طلوب)).

كانها لقوة طلوب      تخزن في وكرها القلوب  
باتت على أرم عذوبا      كأنها شيخة رقوب<sup>(٦٧)</sup>

فهي ناقة دقيقة المسالط لطيفة الخارج، كأنها طائر يسلك بصاحبه مسالك  
صعبة لكنه قادر على السيطرة عليها في كل حين، وكان الناقة هنا أصبحت وجهها من  
وجه السندباد المغامر، فهي مثل النسر الشيخ الرقوب الذي يلحظ ببصره الحديد رزقه  
من بعيد. بل يمتد النسربعواله الأسطورية إلى المتناهي في الصغر في الوجود اليومي  
للشعر الجاهلي نجد هذا لدى طرفة ابن العبد الذي لا ينسى أن يصف ذيل ناقته بقوله:

كأن جناحي مضرحي تكفنا

حفافيه شكاً في العسيب بمسرد

إن عالم الطير بصفة عامة ينمى عوالم تدفع إلى . على . التجاوز والتسامي لخلق  
عوالم أسطورية في بنية الشعر، وعلى رأس هذه الطيور شيخها الوقور النسر، ومن هنا  
شاع في أمثالهم القديمة للشيء الصعب المنال بـ ((يزل عنه ظفر الطائر)) يقول زيد  
الخيلى:

ونون تزل الطير عن قذفاته

وترمى أمام السهل بالصدع الغفر<sup>(٦٨)</sup>

وجاء النسـر مثله مثل الشاهين والصقر والعقاب معادلا جماليا للفتوة  
الجاهلية والعزة والإباء والفروسية القديمة، فتجيء جميع هذه الطيور معادلا للقوة  
والصلابة فى مواجهة الخنوع والضراعة، يقول شبيب بن البرصاء المرى:

إذا افتخرت سعد بن ذبيان لم تجد  
سوى ما ابتئنا ما يعد فخورها  
فلا خير فى العيدان إلا صلابها  
ولا ناهضات الطير إلا صقورها  
ألم تر أنا نور قوم وإنما  
يبين فى الظلماء للناس نورها<sup>(٦٩)</sup>

وهو نفسه ما يشير إليه عامر بن الطفيل فى افتخار بعناد وصلابة النسـر  
الموازى الجمالى لذاته فى مقابل أعدائه، يقول الشاعر:

وتركت جمعهم بلاية ضرغذ  
جزر السباع وكل نسـر أهدب<sup>(٧٠)</sup>

وتتحول شعرية النسـر إلى جدل جمالى بين بغاث الطير من الحبارى والقطاة  
ممثلة ذات المهجو، وبين النسـر . الذى لم يفرق الشاعر الجاهلى بينه وبين الصقر  
والأجدل والعقاب . رمز العنفوان والاقنتدار، يقول دريد مصورا هذا العراك:

قلو ثقفتك وسط القوم ترصدنى  
إذا تلبس منك العرض بالحقب  
وما سمعت بصقر ظل يرصده

من قبل هذا بجنب المرح من خرب<sup>(٧١)</sup>

دائماً نجد هذا القران الشعري التصويرى بين عالم الحرب والفروسية وعالم النسور، بين السمو والتعالى وصعوبة المنال وتحليق النسور ، فى الصراع بين عالم الضعفاء ممثلاً فى البزاة والحبارى والقطة وبغات الطير وعالم الأقوياء ممثلاً فى العقبان والنسور والشواهين، ودائماً نرى أيضاً انتصار الضعيف بحيلة حب الحياة على القوى بشراسته التى تبدد طاقة الحياة فيه، تماماً كما فى لوحة الحمار الوحشى والكلاب ، أو لوحة الطلل والسقيا والغيث، ولوحة الذئاب والحملان، لم يترك الشعر العربى القديم شاردة ولا واردة فى عالم النسور إلا استنفذ فيه وبه طاقته الشعرية الكامنة فيه، حتى كسوة سهم الفارس يجعلها الشنفرى من ريش النسور، ويجعل موضع الوتر من السهم كعرقوب القطة، يقول الشنفرى:

ومستبسل ضافى القميص ضممته بأزرق لا نكس ولا متعوج  
عليه(نسارى) على خوط نبعة وفوق كعرقوب القطة مدحرج<sup>(٧٢)</sup>

لقد تقلبت شعرية النسور مع تقلبات هموم روح العربى القديم مجسدة نوازع أشواقه ، ومعارج خياله ، وقد كان النسور معادلاً جمالياً كلياً للهوية الفردية والجماعية معاً، ينزاح باستمرار عن نمط أعلى من الأنماط التى تكتنف الروح والعقل العربى من كل الجوانب ، وقد ذكر الدكتور عبد القادر الرباعى فى دراستيه المتعتين عن: (( الطير والمعتقد فى الشعر الجاهلى )) و (( الطير وعالمه الحيوانى فى الشعر الجاهلى )) قصصاً شعرية متعددة تماثل القصة الشعرية التى أوردها فوزى المعلوف لامرئ القيس، وهى تصور أوجها من الصراع بين بعض الطيور الأليفة والطيور الجارحة أو سباع الطير، وهى قصص شعرية رمزية درامية مشابهة للقصة الشعرية الدرامية التى أنقن لوحتها امرئ القيس فى لوحته السابقة، نرى ذلك فى قصيدة

للشاعر(صخر) تصور ذلك الصراع الأبدى بين الحياة والموت متمثلاً في عراق الصقر والأفراخ الأليفة الزاغبة ، وقد جاء ذلك فى رثاء الشاعر صخر لأخيه بعد أن نهشته حية فمات: والله فتخاء الجناحين لقوة

توسد فرخيها لحوم الأرانب

كأن قلوب الطير فى جوف وكرها

نوى القسب يلقى عند بعض المآدب

فخاتت غزالا جائثا بصرت به

لدى سمرات عند أدماء سارب

فمرت على ريد فأعنت بعضها

فخرت على الرجلين أخيب خائب

تصيح وقد بان الجناح كأنه

إذا نهضت فى الجو مخراق لاعب

وقد ترك الفرخان فى جوف وكرها

ببلدة لا مولى ولا عند كاسب

فريخان ينضاعان فى الفجر كلما

أحسا دوى الريح أو صوت ناعب

فلم يرها الفرخان عند مسائها

ولم يهدأ فى عشاها من تجاوب

فذلك مما يحدث الدهر إنه

له كل مطلوب حثيث وطالب<sup>(٧٣)</sup>